Journal of Islamic Sciences
Volume (4), Issue (7): 30 Dec 2021
P: 104 - 123

ISSN: 2664-4347

مجلة العلوم الإسلامية
المجلد (4)، العدد (7): 30 ديسمبر 2021م
ص: 104 - 123

The impact of oriental studies on the methods of writing the biography of the Prophet

Amal Obead Althubiti

Umm Al-Qura University || KSA

Abstract: The study aimed at identify the most prominent similarities raised by orientalists against the Prophet's biography, and to shed light on the most prominent Muslim scholars who responded to these suspicions. The study used the critical inductive approach, and the study reached many results, most notably: that intolerance and prejudice were dominating the writings of the ancient Orientalists due to their being affected by the spirit of religious fanaticism that was dominant and crystallized by the impact of the Crusades, and due to their weak knowledge of the Arabic language, and the lack of resources available to them. However, since the early modern times, the West has not been free of moderate thinkers who have praised Islam, but since the nineteenth century interest began to study and print Arabic manuscripts, and Orientalists began studying the history of the East for itself, following the scientific method that had made great progress in the West.

Keywords: Orientalism - Biography of the Prophet - Westerners - Modernists - Criticism of Oriental Studies.

أثر الدراسات الاستشراقية على مناهج كتابة السيرة النبوية

أمل عبيد الثبيتي

جامعة أم القرى || المملكة العربية السعودية

المستخلص: هدفت الدراسة إلى الوقوف على أبرز الشُّبه التي يثيرها المستشرقون ضد السيرة النبوية، وتسليط الضوء على أبرز من قام بالرد على هذه الشبهات من علماء المسلمين، كما هدفت إلى التعرف على مداخل الاستشراق للطعن في السيرة النبوية، وتبصير أبناء الأمة الإسلامية الذين ينخدعون بكتابات المستشرقين، واستخدمت الدراسة المنهج الاستقرائي التام النقدي، وتوصلت الدراسة إلى العديد من النتائج أبرزها: أن التعصب والتحامل كانا يطغيان على كتابات المستشرقين القدامى نظرًا لتأثرهم بروح التعصب الديني الذي كان مسيطرًا ومتبلورًا بتأثير الحروب الصليبية، ونظرًا لضعف معرفتهم باللغة العربية، وقلة المصادر المتوفرة لديهم، غير أنه لم يخل الغرب منذ أوائل العصور الحديثة من مفكرين معتدلين امتدحوا الإسلام، ولكن منذ القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بدراسة المخطوطات العربية وطبعها، وأخذ المستشرقون يدرسون تاريخ الشرق لذاته متّبعين الطريقة العلمية التي كانت قد قطعت شوطًا كبيرًا من التقدم في الغرب.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق – السيرة النبوية – التغريبين – الحداثيون – نقد الدراسات الاستشراقية.

المقدمة.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين سيدنا محمد بن عبد الله النبي الأمي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن السيرة النبوية ليست سيرة نبي فحسب، بل هي مصدر تشريعي للمسلمين، ومن هنا فصحتها يترتب عليه صحة ما يقوم به العبد من عبادة لله تعالى، فالنبي ﷺ قد ترك لنا من سنته ﷺ ما لو تمسكنا به فلن نضل أبدًا. ومن

هنا كانت محاولات العابثين للطعن في سنة النبي ﷺ انطلاقًا للطعن في القرآن بعد؛ ليضرب بهذا الطعن مصدري التشريع؛ فيضيع الدين بضياع مصدريه، إلا أن الله تعالى الذي وعد بحفظ الذكر سيحفظ سنة النبي ﷺ من طعن الطاعنين، ولكم حفظ الله عز وجل رسوله ﷺ الذي حمل هذا الدين، هذا الدين الذي ابتلي منذ اللحظات الأولى لإشراقه على الوجود بمحاولات إطفاء نوره، وقد اتضح ذلك لرسول الله ﷺ حين أُخبر بمعاداة قومه وبأنهم سيخرجوه من وطنه، وأخبر كذلك بأنها سنة الله في الأنبياء، أن يعادوهم أقوامهم، ويخرجوهم من أوطانهم، وقد كان ما وُعِدَ به ﷺ؛ فعودي وأوذي من قومه وأُخرج من وطنه[1].

ومن ثم فقد تعرض نبينا الكريم ﷺ للإيذاء من بني قومه، بل وزد على ذلك من أقاربه المقربين، فهذا عمه عبد العزى "أبو لهب" يمشي خلف ابن أخيه؛ ليخبر الناس – زورًا وبهتانًا - أن ابن أخيه كاذب.[2] وإن الله تبارك الذي تولى الدفاع عن المؤمنين فقال: " إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ" [الحج: 38] فإن الله تعالى الذي يدافع عن المؤمنين لحري بكرمه - سبحانه - الدفاع عن سيد المرسلين محمد ﷺ وهو سيد المؤمنين، ليكون الدفاع عنه ﷺ مشتملًا على الدفاع عن المؤمنين؛ إذ هذا النص الحكيم من - كلام رب العالمين - وعد فيه ربنا أن يتولى الدفاع عن الذين آمنوا، فكيف بسيد المؤمنين أجمعين محمد بن عبد الله ﷺ.

وإنّ المسلم- مهما كانت درجة ثقافته - يتعامل مع معطيات السّيرة وفق ما يمكن اعتباره شبكة من البديهيات والمسلّمات، وهي لم تأت إليه مباشرة عن طريق الأخبار والروايات التاريخية، التي قد يكون بعضها ضعيفًا وبعضها الآخر مشكوكًا فيه[3].

ولهذا فالحديث عن بعض المستشرقين وعن موقفه تجاه الدراسات الإسلامية بعامة وعن السيرة بخاصة يحتاج لمزيد من الحذر؛ فالكثير من الأفواه قد تمجد البعض منهم انخداعًا به، أو لنجاح الآخر – الممدوح – في (الروغان) من أن تمسك به يد الناقد؛ فالمستشرق مونتجمري وات – مثلا - نشرت بعض المجلات (الإسلامية) التي تصدر بالإنجليزية في لندن مقالًا عنه بعنوان: "المسيحي ذو التعاطف غير العادي مع الإسلام" والمقال بقلم ماليز روثفن، وهو كاتب مسيحي يعمل بنشاط في ميدان الغزو الفكري ضد المسلمين، ويحاول كاتب المقال - جاهدًا - أن يبرزه على أنه استثناء مشرف من القاعدة العامة، وهي تعصب المستشرقين ضد الإسلام[4]. وفي الواقع هي حقيقة ينبغي أخذها في الاعتبار عند دراسة أعمال المستشرقين؛ إذ يؤيد نشأة الاستشراق وأهدافه هذا الموقف الذي ينبغي اتخاذه تجاه أعمال المستشرقين حين قراءتها ومدارستها، فضلًا عن الكثير منهم قد يرفض رواية أو يقبلها حسب الهوى، دون وازع من علم؛ إذ لا وازع من دين لهؤلاء[5].

---

(1) في قصة ذهاب السيدة خديجة بالنبي ﷺ إلى ورقة بن نوفل قال للنبي ﷺ: " يا ليتني فيها جذعة، ليتني أكون حيّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلّا أوذي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا". انظر: الخركوشي، شرف المصطفى، ج1، ص428؛ الأصبهاني، دلائل النبوة ج1، ص213؛ الماوردي، أعلام النبوة، ج1، ص238؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج2، ص137.

(2) أخرجه الدراقطني في سننه، كتاب البيوع، ج3، ص462، حديث رقم 2976؛ وابن أبي شيبه في مصنفه، كتاب المغازي، باب في أذى قريش للنبي صلى الله عليه وسلم وما لقي منهم، ج7، ص332، حديث رقم 36565.

(3) انظر: خليل، المستشرقون والسيرة النبوية، ص6.

(4) انظر: وات، محمد صلى الله عليه واله وسلم في مكة، ص20.

(5) انظر: العمري، مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات الإخباريين، ص63.

وخلاصة القول: فإن الدراسة التي نحن بصددها تشكل أهمية كبيرة في واقعنا المعاصر الذي تعددت فيه التحديات، وتوالت فيه السهام على أمة الإسلام، وكان من الواجب أن تكون لنا مساهمة في الكشف عن واحدًا من أهم هذه السهام، بل وأخطرها تأثيرًا؛ إذ تتصل بمصدر للتشريع وهي سيرة النبي ﷺ.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

لم تقدم أمة على دراسة تراث أمة كما فعل المستشرقون، فقد درسوا جوانب متعددة تتعلق بالإسلام والمسلمين وحياة الرسول الكريم ﷺوزوجاته وكذلك العقيدة والشريعة الإسلامية، والتاريخ الإسلامي واللغة العربية بل وعامة لغات الشعوب الإسلامية، وتجاوز ذلك إلى تفاصيل دقيقة في الحياة والتراث والأدب والمواقع والبلدان وغير ذلك؛ ولا شك أن المتأمل فيما خلفه المستشرقون من كتابات حول السيرة النبوية، يجد أن هذه الكتابات قد اشتركت في مجموعة من السمات والصفات التي تدل على إجحاف هؤلاء المستشرقين، وانعدام الإنصاف في فكرهم، هذه السمات في حاجة إلى جمعها وتسليط الضوء عليها؛ ومن ثم فإن مشكلة البحث تتمثل في التساؤل الرئيس التالي:

ما أثر الدراسات الاستشراقية على مناهج كتابة السيرة النبوية؟

أهداف البحث:

- الوقوف على النشاط الثقافي الذي يخدم السيرة النبوية والذي يستهدف رد شبه المبطلين عن سيرة النبي الكريم، وكذا الوقوف على أبرز الشُّبه التي يثيرها المستشرقون ضد السيرة النبوية.
- استعراض بعض الكتب التي تصدت للرد على مزاعم المستشرقين وأخطائهم؛ فدراسة هذه الكتب تُبصِّرُ طلاب الحقيقة من المستشرقين المنصفين بحقائق الإسلام ومناهج المغرضين من المستشرقين في تناول سيرة الرسول ﷺ.

أهمية البحث:

تتمثل أهمية البحث في تناوله لأهم الدراسات الاستشراقية العامة التي تناولت التفاصيل الدقيقة للسيرة النبوية، وبذلك تأمل الباحثة أن تفيد نتائج البحث على النحو الآتي:

- الرغبة في تقديم دراسة علمية ذات صلة بالسيرة النبوية، نصحح فيها ما قدم عن السيرة النبوية؛ باعتبارها مصدرًا رئيسًا من مصادر التشريع.
- قد تفيد في بيان ما فيها من فوائد ومباحث ولضبط ما فيها من تلبيس وتزوير وتزييف، وتنقية السيرة النبوية مما علق بها من زيف وضلالات، لما له من أهمية كبيرة كونه يتعلق بمصدر رئيس من مصادر التشريع.
- وتتمثل أهمية البحث أيضًا في كونه يلقي نظرة نقدية على كتابات الغربيين ومناهجهم في كتابة السيرة النبوية ومدى تأثر الكتاب العرب والمسلمين بهذه الكتابات، مع تجلية مدى التأثر والتبعية من ثنايا كتبهم ومصنفاتهم.

الدراسات السابقة:

- **دراسة الدكتور مصطفى بن عمر المسلوتي (2004)** بعنوان "الاستشراق والسيرة النبوية" وهي عبارة عن بحث منشور في مجلة الواضحة التابعة لدار الحديث الحسنية المغربية للدراسات الإسلامية العليا بوزارة الأوقاف والشئون الإسلامية المغربية: تناولت الدراسة جذور الدراسات الاستشراقية عن السيرة النبوية والعقبات التي واجهت المستشرقين في دراسة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد خلصت الدراسة إلى اهتمام المستشرقون بالسيرة النبوية اهتمامًا كبيرًا يتمثل في كثرة ما صنفوه حولها من مقالات وكتب، وما نشروه من كتب قديمة مع

الإشارة إلى أن دافعهم إلى ذلك لم يكن علميًا معرفيًا بل كان في الغالب بدافع التهجم والطعن لأنهم يعتقدون ببطلان الإسلام وينكرون الرسول ولا يؤمنون بالغيبيات والمعجزات ولا تهمهم صحة الأخبار ويعرضون أحداث السيرة على عاداتهم ومعتقداتهم، وقد أوصت الدراسة بضرورة الاهتمام بالأعمال الاستشراقية حول السيرة النبوية لأنها لم تحظ بعد بالعناية اللازمة وأنها كثيرة ومتنوعة.

- **دراسة الدكتورة فتحية عبد الفتاح النبراوي (2006)** بعنوان "المستشرقون والسيرة النبوية المطهرة" وهي عبارة عن بحث مقدم للمؤتمر الدولي حول المستشرقون والدراسات العربية والإسلامية المنعقد في كلية دار العلوم بجامعة المنيا بمصر: تناولت الدراسة تسليط الضوء على مواقف المستشرقين وآرائهم حول السيرة النبوية، وقد خلصت الدراسة إلى أن المستشرقين قد وقفوا منذ بداية الاستشراق موقفًا عدائيًا من السيرة النبوية المطهرة دون الرجوع إلى مصادرها الأصلية، كما خلصت الدراسة إلى أن الدراسات الاستشراقية في كثير من جوانبها تعكس جهلًا واضحًا بحقيقة الإسلام نتيجة إخضاع دراسة تاريخ الإسلام والمسلمين لمفاهيم مسيحية، فضلًا عن غياب المنهج العلمي المحايد في كثير من هذه الدراسات.
- **دراسة الدكتور محمد مصطفى صالح (2011)** بعنوان " وقفات مع بعض المستشرقين في دراستهم للسيرة النبوية" وهو بحث منشور في مجلة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب جامعة الخرطوم بالسودان: هدفت الدراسة إلى الوقوف على الطريقة التي تعامل بها بعض المستشرقين مع السيرة النبوية، وذلك بغرض تجلية دوافعهم ونزعاتهم تجاه السيرة، وقد خلصت الدراسة إلى أن هناك عوامل عديدة شكلت اتجاهات المستشرقين تجاه النبي عليه الصلاة والسلام ولعل النقطة الجوهرية في نظرة المستشرقين نحو النبي أن الإسلام مأخوذ من ديانات سابقة تأثر بها نبي الإسلام خاصة اليهودية والنصرانية، والكثيرون من المستشرقين يرون في رسول الإسلام مصلحًا اجتماعيًا، ولا يعتبرونه نبيًا ورسولًا مرسلًا من عند الله.
- **دراسة الأستاذة الدكتورة فاطمة عنيزان والأستاذة الدكتورة خديجة عنيزان (2013)** بعنوان "الاستشراق والسيرة النبوية: آراء ومواقف" وهو عبارة عن بحث منشور بمجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية: تناولت الدراسة الجذور الأولى التي مهدت لنشأة الاستشراق أي الصلة الأولى بين المسلمين والغرب، تم تناولت تنصيف المستشرقين ومراحل كتاباتهم عن الإسلام والسيرة النبوية حسب الملابسات والظروف، وقد خلصت الدراسة إلى الاهتمام الواسع بالإسلام بصورة عامة والسيرة النبوية والقرآن الكريم بصورة خاصة ونتيجة لهذا الاهتمام رفدوا المكتبة الإسلامية بوافر من البحوث والمصنفات والمعاجم وغيرها وقد نشأ من ذلك حركة استشراقية واسعة لها اهتمام باللغة العربية والدراسات الإسلامية في الجامعات المختلفة وأخذ مكانة مهمة في عدد من الدول الغربية، وأثمرت جهودهم على نهضة واسعة أدت إلى تحديد مواضع الضعف والقوة من خلال منظورهم العلمي والسياسي والاقتصادي والاستعماري، الذي ولد لديهم مزيج متناقض وفق قدراتهم وإمكاناتهم على فهم العربية ودلالات ألفاظها.

أوجه الاختلاف والتميز بين الدراسة الحالية والدراسات السابقة:

في الوقت الذي تتحد فيه الوجهة بين الدراسة الحالية والدراسات السابقة في تسليط الضوء على جذور التناول الاستشراقي للسيرة النبوية، تتباين وتختلف وتتميز الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة في البعد النقدي وليس البعد الاستعراضي لهذا التناول الاستشراقي للسيرة النبوية، وتتميز عليهم أيضًا باستعراض ملامح التأثير الذي أحدثته هذه الدراسات الاستشراقية على مناهج كتابة السيرة النبوية من الكتاب المسلمين بين مؤيد ومتأثر لأفكار ومعتقدات التناول الاستشراقي للسيرة النبوية وبين معارض ومعترض وناقد لها في كتاباته في السيرة النبوية.

منهج البحث.

نظرا لطبيعة البحث، ولكونه يتعلق بمناهج الدراسات الاستشراقية في دراسة السيرة النبوية، فإن المنهج الملائم لتلك الدراسة هو المنهج الاستقرائي التام النقدي، أما الاستقرائي التام فلكونه يحقق استقراء عدد من المؤلفات التي كتبت في السيرة النبوية متأثرة بمناهج الدراسات الاستشراقية حول السيرة النبوية، منها ما **كتبه طه حسين** في كتابه **"على هامش السيرة"**، ومنها ما كتبه **محمد حسين هيكل** في كتابه **"حياة محمد"** ﷺ، أو في كتابه الآخر **"في منزل الوحي"**، وأما النقدي فلكونه يعمل على تقديم صورة نقدية عن هذه المؤلفات، والتي توصل البحث لها باستخدام المنهج الاستقرائي.

خطة البحث:

وحتى يحقق البحث الفائدة المرجوة منه، فقد ارتأت الدراسة أن يسير العمل وفق التخطيط التالي، والذي يحوي بعد المقدمة، تمهيد وثلاثة مباحث، كالتالي:

- **المبحث التمهيدي:** ماهية الاستشراق لغة واصطلاحًا ونشأته وأهدافه.
- **المبحث الأول:** المنهج النقدي للدراسات الاستشراقية.
- **المبحث الثاني:** المنهج المؤيد للدراسات الاستشراقية.
- **المبحث الثالث:** المنهج المحايد للدراسات الاستشراقية.
- **الخاتمة.:** وفيها النتائج والتوصيات.

المبحث التمهيدي: ماهية الاستشراق لغة واصطلاحًا ونشأته وأهدافه:

أ- تعريف الاستشراق لغة واصطلاحًا:

اختلف الباحثون في إيجاد تعريف موحد للاستشراق، رغم أن هذا الاختلاف شكلي وجزئي، إلا أنهم يتفقون فيما بينهم على عناصر مشتركة للاستشراق والمستشرقين، ويعود ذلك إلى تصور كل واحد منهم لحقيقة الاستشراق وأهدافه.

يعرف إدوارد سعيد المستشرق بأنه: كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء البحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواء كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه اللغة، وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة، فالاستشراق إذن وصف لهذا العلم [(6)].

بينما يرى أحمد حسن الزيات أن الاستشراق هو: ما يقوم به الغربيون من دراسة لتاريخ الشرق وأممه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره، ولكنه كان يقصد به في العصور الوسيطة دارسة العبرية لصلتها بالدين، ودارسة العربية لعلاقتها بالعلم، فبينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغمورًا بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدنية والعلم، كان الغرب من بحره إلى محيطه يعمه في غياهب من الجهل الكثيف [(7)].

ب- نشأة الاستشراق:

لا يعرف بالضبط من هو أول غربي عنى بالدراسات الاستشراقية ولا في أي وقت كان ذلك، ولكن المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس في إبان عظمتها ومجدها، وتثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب

(6) انظر: سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ص44.

(7) انظر: قميحة، آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم، ص15.

والعربية إلى لغاتهم، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات. ومن أوائل هؤلاء الرهبان، الراهب الفرنسي "جربرت Jerbert"" الذي انتخب بابًا لكنيسة روما عام 999م بعد تعلمه في معاهد الأندلس وعودته إلى بلاده، و "بطرس المحترم" 1092 – 1167م، و "جيراردي كريمون" 1114- 1187م"[8].

وبعد أن عاد الرهبان إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم، ثم أسست المعاهد للدراسات العربية أمثال مدرسة "بادوي" العربية، وأخذت الأديرة والمدارس العربية تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية، وهي لغة العلم في جميع بلاد أوروبا يومئذ – واستمرت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب وتعتبرها المراجع الأصيلة للدراسة قرابة ستة قرون[9].

وفي سبيل ذلك أسسوا المطابع وأنشأوا المكتبات والجمعيات وأقاموا المؤتمرات وأصدروا المجلات، وجمعوا المخطوطات، ونشروا نفائس الكتب، وعلقوا عليها الحواشي وذيلوها بالفهارس المختلفة للأسماء والموضوعات والأمكنة، ثم كتبوا البحوث القيمية في تحقيق الألفاظ، وتحرير الأصول، وتصحيح الأخطاء، وكشف المجهول على الأسلوب العلمي الصحيح، والمنهاج المنطقي الحديث، فكانوا في ذلك قدوة لمعلمي اللغة ومؤرخي الأدب من العرب، في تحضير المادة، وتنظيم البحث، وتوخي الدقة، وتحرى الصواب، وتقصي الفروع[10].

ج- أهداف الاستشراق:

يتمثل الهدف العام من الاستشراق في دراسة القرآن والسنة بغرض التأثير فيها لتقديمها بمنهج ووجه مخالف لما هي عليه وذلك بإثارة الشبهات حولها، لما تمثله من أهمية كبيرة في وجدان كل مسلم. وحيث إن الاستشراق يهدف – ضمن ما يهدف – إلى تشكيك المسلم في عقيدته، ودينه، فكانت دراساتهم للسيرة تتجه نحو تحقيق ما يهدفون لتحقيقه؛ فقداسة القرآن، وثبوته عن رب العزة تعالى، جعلهم لا يقوون على الولوج في التشكيك فيه مباشرة، وإنما جعلوا من السيرة والسنة بعامة بابا يلجون منه نحو القرآن والتشكيك فيه.

وعلى الرغم من خطورة تلك الأهداف، والتي تسعى الدراسات الاستشراقية نحو تحقيقها، في حق الدين والعقيدة، إلا أن رجالها قد عملوا جاهدين على تحقيقها، وقد وجد هؤلاء ضالتهم في تجنيد عدد من رجالات العرب والمسلمين ليتبنوا أفكارهم، وبهذا يكونوا أكثر قبولًا لدى بني جلدتهم من العرب المسلمين، فحين يلجون في التشكيك في سيرة نبيهم فهم أكثر مصداقية من غيرهم؛ ومن هنا فقد كان للدراسات الاستشراقية دورها المهم في توجيه حركة الكتابة والتأليف في السيرة النبوية وقد تبين أن هذه الكتابات قسمان: قسم تأثر فيه أصحابه بدراسات المستشرقين والمبشرين، وآخر انتقدها أو أخذ منها موقفًا محايدًا؛ إذ رأى فيها وجهًا جديدًا من وجوه الحرب على الإسلام، وشكلًا مختلفًا من أشكال الاستحواذ على أمة الإسلام من خلال الطعن في سيرة نبيهم[11].

ومن هنا فقد جاءوا بافتراءات على نبي الإسلام لا تستند لشيء من العقل أو الحياد اللهم إلا وازع الحقد على نبي الإسلام ﷺ ومن صور ذلك ادعائهم أن السرايا الاعتراضية التي قام بها النبي ﷺ كان الغرض منها هو النهب والسلب، كما يدَّعي بعض المستشرقين[12]. وهو استنتاج منهم خارج عن إطار البحث الموضوعي، وقد انتهج فيه المستشرقون طريقًا جديدًا في بحث السيرة؛ إذ كان للمستشرقين طرائق في البحث والاستنباط قد تجعل الكثيرين منهم يتحكمون تحكمًا في الآراء والنتائج، ويقعون في أوهام وأغلاط خطيرة، إما بسبب تعظيم خبر أو رواية قد لا تكون

(8) انظر: السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص13-14.

(9) المرجع السابق: ص14.

(10)انظر: الزيات، تاريخ الأدب العربي، ص514.

(11) انظر: عواجي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، ج2، ص710.

(12) انظر: العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص54.

صحيحة في أصلها، أو تكون قد فهمت على غير وجهها الصحيح، أو رجحت دون مبرر صحيح للترجيح، وإما بسبب عدم القدرة على فهم روح اللغة العربية وأسرارها البلاغية، كما أن بعضهم في كثير من الأحيان يفترضون افتراضات تجعلهم يقيسون مع الفارق، ويسوغون ما لا يمكن تسويغه؛ بسب عدم قدرتهم على فهم البيئة العربية فهمًا صحيحًا[13].

وفوق هذا فإنهم قد استندوا أصلًا إلى المصادر العربية القديمة وفيها من المآخذ ما أشرنا إليه، ولم تكن لهم القدرة اللغوية على تمحيص ما بها تمحيصًا صحيحًا، كما أن بعضهم قد كتب في تاريخ الإسلام لغرض معين، فكتب ما كتب بدافع الهوى، وأحيانًا بدافع الحقد، فلجئوا إلى كل شاردة من الروايات مهما كانت ضعيفة أو تافهة في سبيل تثبيت نظرية خاصة يريدون الإدلاء بها؛ فتورطوا في بحوثهم، وخرجوا بها عن جادة العلم والبحث والأمانة[14].

ومن ثم إن نتائجها تنحرف عن العلم لأنها تصدر عن الهوى، وتفقد القدرة على تجسيد عصر الرسالة وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، ونقل تأثيراتهما الجمالية بالمستوى العالي نفسه من التحقق التاريخي، لأنها تسعى لأن تخضع حقائق السيرة لمقاييس عصر تنسخ كل ما هو جميل، وتزيّف كلّ ما هو أصيل، وتميل بالقيم المشعّة إلى أن تفقد إشعاعها وترتمي في الظلمة، أو تؤول إلى البشاعة[15].

وكثير منها مملوء حقداً وبغضاً وسباً وشتماً لرسول الله ﷺ ولأصحابه ﷺ وقد تبعهم على ذلك بعض أتباعهم ممن ينسبون إلى المسلمين. وقد وجد هؤلاء في بعض المصادر المتأخرة، ولم تخل من إضافات تخالف الواقع التاريخي للسيرة النبوية، وتخالف روح الإسلام ونصوص القرآن والسنة، ضالتهم في الطعن على السيرة النبوية، ممّا جعل السبيل ممهدة أمام المستشرقين وغيرهم أن يشككوا في سيرة الرسول ﷺ[16].

وأمام كل هذه الجهود التي نتجت عن الدراسات الاستشراقية خرجت مناهج لدراسة السيرة النبوية متأثرة بتلك الدراسات الاستشراقية، وكان منها الناقد لتلك الدراسات المعترض على مبادئها وتصوراتها، ومنها المتأثر بها، وعلى رأسهم دعاة التغريب، من أولئك المتأثرين بهم والمنبهرين بكل ما عنهم وإن كان غثا، ثم فريق آخر أخذ موقفا حياديا تجاه تلك الدراسات.

وإن كان من كلمة تقال فإن من الحق أن نشير إلى أن هذا المنهج الأخير – المحايد - يعد هو الموقف الأفضل؛ لاتفاقه مع قواعد البحث السليم؛ إذ لا شك أن الدراسات الاستشراقية كان منها المقبول – وإن كان هناك شك في نية قائله – والمرفوض؛ لتعارضه مع صريح السنة وصحيحها.

وفي هذه المباحث الثلاث سنلقي الضوء على كل واحد من هذه المناهج، مستدلين بنماذج من كتابات أصحابهم.

المبحث الأول: المنهج النقدي للدراسات الاستشراقية.

أمام تزايد تأثر بعض الباحثين بمناهج المستشرقين واستسهال النقل عنها ظهرت بعض الدراسات المغلوطة المليئة بتلميحات غير صحيحة عن سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومن حسنات الزمن تصدى أُناس لنقد كتابات المستشرقين، والعمل على إبطال ما فيها من أكاذيب، ولقد ظهر هذا المنهج النقدي نتيجة لتلك الدراسات الاستشراقية التي تعمدت الإساءة لسيرة النبي ﷺ؛ لضرب أصول الإسلام؛ ومن ثم فقد وجد هؤلاء أن من واجبهم

(13) انظر: الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، ص6.

(14) انظر: السابق، نفسه.

(15) انظر: خليل، المستشرقون والسيرة النبوية، صـ 8.

(16) انظر: قربي، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، صـ 12.

إبراز مكانة السيرة النبوية، وإظهار عظمتها، وبخاصة في العصر الحديث؛ والحق أن هذا الواجب لهو من الأمور الضرورية في مواجهة تحديات هذا العصر المتكاثرة، ذلك أن عصرنا الحاضر يقوم على مناهج تربوية مؤثِّرة في صبغ الأجيال الصاعدة بصبغة جاهلية معاصرة، في الأعم الأغلب، وقد شمل هذا الفكر التربوي والأدبي أجيال المسلمين، وتغلغل في نفوسهم، واحتل مكان الصدارة في التوجيه والتأثير، وفقدت الأجيال - أو كادت - ثقتها لتراثها، واشتدت الهجمات القوية العنيفة على علوم الإسلام وحضارته، بما في ذلك التشكيك في سيرة الرسول ﷺ، مستغلين في ذلك بعض الروايات الضعيفة والحكايات الغريبة، والمبالغات الشاطحة، التي لم يقم عليها دليل، ولم يسندها عقل، ولم تثبت بنقل فكان لزاماً على الدارسين المختصين أن يولوا هذه السيرة الزكية بالغ اهتمامهم، جمعاً ودراسة وتمحيصاً وتحقيقاً مستندين في ذلك إلى قواعد المحدثين في الجرح والتعديل لكشف العلل الغامضة فيها، وبيان الصحيح من الضعيف في نصوصها[17].

ومن هنا جاءت الدراسات التي تناولت تفنيد شبه هؤلاء المبطلين، وقد تجلى هذا الجهد في أعمال أكاديمية تتفق وأساليب البحث العلمي المعاصر، وهذه – في نظري – الأهم في هذا المضمار، ثم جهود أخرى تميزت بالفردية والجهد الذاتي، ولا يمكننا إغفال دورها بلا شك.

ونعرض لهذا الدور النقدي بصوره من خلال مطالب:

المطلب الأول: منطلقات الدراسات النقدية للدراسات الاستشراقية:

منذ أن عرف العالم الإسلامي سبلًا معرفية وثقافية لنقد الدراسات الاستشراقية، كانت منطلقات هذا النقد قائمة على أساسٍ ديني، حيث سعوا من خلال هذه الدراسات النقدية إلى الدفاع عن الإسلام ضد الصُّورة المُجحفة التي رسمها كتابات كثيرٍ من المُستشرِقين عن الإسلام. ولقد تميزت هذه الجهود النقدية التي كتبت بالأساس لنقد الدراسات الاستشراقية، أنها خرجت انطلاقًا من منطلقات مُفسِّرة لطبيعة تلك الكتابات، ومن ثم توضيح مبهمها وكشف غامضها وتصويب خطئها.

المنطلق الأول: منهج الدراسات الاستشراقية منهج نقدي حاد: ويتلخص المنهج النقدي لكتابات المستشرقين حول السيرة انطلاقًا من رؤيتهم لطبيعة تلك الكتابات "فإنّ منهج البحث الغربي، في حقل السيرة بالذات، قد يتعامل بصيغ نقدية حادة ومبالغ فيها، تقود بالضرورة إلى التشكيك بالكثير من أهمّ وقائع السيرة ومرتكزاتها، خاصة إذا تذكرنا المنظور المادي للرؤية الغربية، أو العلماني على أحسن الأحوال، هذا المنظور الذي يرفض البعد الغيبي في تعامله مع التاريخ، أو يدفعه إلى الظل، الأمر الذي يلحق بالسيرة أذى كبيرا"[18].

المنطلق الثاني: افتقاد الدراسات الاستشراقية للمنهج العلمي: كان من أهم منطلقات الدراسات النقدية للدراسات الاستشراقية قيامها على أسس غير منهجية، وأضف لذلك أن المنهج الذي سار عليه كثير من المستشرقين، وكثير من المؤرخين العرب والمسلمين المعاصرين لم يكن منهجًا علميًا[19]. ونستطيع أن نخلص إلى أنه ليس بمقدور أيّ مستشرق على الإطلاق مهما بلغ اتساع ثقافته، واعتدال دوافعه، وحياديّته، ونزوعه الموضوعي، إلّا أن يطرح تحليلًا للسيرة لابدّ أن يرتطم، هنا أو هناك، بوقائعها وبداهتها ومسلّماتها، ويخالف بعضا من حقائقها الأساسيّة، ويمارس- متعمدًا أو غير متعمد- تزييفًا لروحها وتمزيقًا لنسيجها العام[20].

---

(17) غزوة بني المصطلق، صـ 11.

(18) انظر: الندوي، السيرة النبوية، صـ 15.

(19) انظر: عكوي، جهود علماء المسلمين في تمييز صحيح السيرة النبوية من ضعيفها، صـ 16.

(20) انظر: خليل، المستشرقون والسيرة النبوية، صـ 120؛ خليل، دراسة في السيرة، صـ 7.

المنطلق الثالث: الموقف السامي من السيرة: إن الموقف الإسلامي الأصيل من السيرة، الموقف المتوحّد الذي تتغلغل في نسيجه مشاعر الاحترام والتقدير والإعجاب والمحبة واليقين، والذي يجد في السيرة تعبيرًا متكاملًا عن العقيدة التي ينتمي إليها، فإنه يجد في الدراسات الاستشراقية الخارجية عن السيرة، تغرّبًا عن مسلّماته، وخروجًا صريحًا على بداهاته، وما يمكن اعتباره محاولات متعمّدة لإصابة هذه المسلّمات والبداهات بالجروح والكسور، وهي- لحسن الحظّ- لن تفعل فعلها في يقينه، إلّا في حالات معيّنة، بينما نجدها تدفعه في أغلب الحالات وأعمها إلى الاشمئزاز والنفور[21].

وينبغي علينا ونحن نتعامل مع هذا المستشرق أو ذاك في حقل السيرة النبوية - يجب أن ننتبه إلى هذه المسألة مهما كان المستشرق ملتزمًا بقواعد البحث التاريخي وأصوله، فإنّه من خلال رؤيته الخارجية، وتغرّبه، وعلمانيّته أو ماديته، يمارس نوعًا من التكسير والتجريح في كيان السيرة ونسيجها، فيصدم الحس الديني ويرتطم بالبداهات الثابتة، وهو من خلال منظوريه العقلي والوضعي يسعى إلى فصل الروح عن جسد السيرة، على الجدل، وهو في كلتا الحالتين لا يمكن أن يخدم الموقف الإسلامي الجاد من سيرة رسول الله ﷺأو يحتل موقفًا جادًّا منها بوجه من الوجوه»[22].

المنطلق الرابع: نقد التأثير الاستشراقي في كتابات السيرة النبوية: كان للدراسات الاستشراقية دورها الكبير في إحداث نزعة تأليفية في السيرة النبوية متأثرة بتلك الدراسات الاستشراقية، ومن ثم فقد كان أحد انطلاقات الاتجاه النقدي لتلك الدراسات الاستشراقية محاولة رد أغاليطها، ومن ثم وقد اجتهد بعض المحققين في توجيه انتقادات للمستشرقين حول كتابات المستشرقين، فيقول أحدهم: "تعرّضت أثناء الكتاب للرّدّ على بعض المستشرقين وأبواقهم المقلّدين لهم، وذلك في المواضع الّتي تحتاج لذلك، ويحسن بي أن أشير إلى أنني عدت إلى معظم كتب المغازي والسّير الّتي كتبت قديمًا وحديثًا لمعارضتها بهذا الكتاب[23].

وباستقراء منطلقات الجهود النقدية للدراسات الاستشراقية السابقة، يُمكن القول بإن نقد الاستشراق جاء مصاحبًا لعصر النهضة الفكرية الحديثة في العالم الإسلامي، وكان المحور الرئيسي والمنطلقات العامة لهذا النقد دينيًّا دفاعيًّا بحتًا، أمَّا العنصر السياسي فيه فكان غائبًا في كثيرٍ من الأحيان، وإذا وُجِد فقد كان هامِشيًّا يرتدُّ في نهاية الأمر إلى خِدمة الهدَف الديني.

المطلب الثاني: الجهود العلمية الأكاديمية:

برغم ما قامت به الدراسات الاستشراقية من هجوم على السيرة النبوية ومحاولة تشويهها وإلصاق ما لا يليق بها من اتهامات باطلة إلا أن نفرًا من علماء المسلمين، وكتابهم، استشعروا واجب العناية بالسيرة[24]، ومن هنا فقد بدأت دراسات جادة وجيدة لسيرة النبي ﷺ ولنقد كتب السيرة التي أنتجها المستشرقون أو من سار على دربهم من بني جلدتنا، ومن تلك الدراسات الجيدة ما كتبه عدد من الباحثين في جامعة أم القرى، وفي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، فإن هؤلاء كتبوا عدة رسائل درسوا فيها بعض المسائل المتعلقة بسيرة النبي ﷺ دارسة حديثية نقدية ممتازة، نسوق طرفًا منها على النحو الآتي:

(21) انظر: الندوي، السيرة، صـ 15؛ خليل، المستشرقون والسيرة النبوية، صـ 6.

(22) انظر: الندوي، السيرة النبوية، صـ 16.

(23) انظر: بحرق، حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، ج1، ص19.

(24) انظر: الحجي، السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها، صـ 86.

- كان للشيخ محمد أمين المصري رحمه الله تعالى فضل في ذلك بعد الله تعالى؛ فإنه أول من اقترح هذه الدراسات، وأشرف على عدد من هذه البحوث، إلا أن هذه الأمة لا تعدم الخير في علمائها ورجالها، فقد تابع الإشراف على هذه الرسائل الأستاذ الشيخ الدكتور أكرم العمري، والرجل صاحب فضل كبير في هذا المجال من الدراسات النقدية؛ فقد حرص الدكتور أكرم العمري على متابعة سيرة النبي ﷺوعلى متابعة هذه الرسائل لإخراج سيرة جيدة متكاملة مبنية على الدراسة الحديثية المؤصلة[25].
- ومن تلك الدراسات التي اهتمت بالسيرة النبوية ما كتبه الأستاذ محمد سرور زين العابدين، وتقع دراسته تحت عنوان: "دراسات في السيرة النبوية"، فإن هذا الكتاب قد طبع، ودرس فيه كثيراً من مناهج السيرة النبوية، ونقد نقداً ممتازاً كثيراً من مناهج المستشرقين وأتباعهم من المستغربين، ودراسته هذه مطبوعة[26].
- ومنها أيضاً ما كتبه الدكتور أكرم ضياء العمري، الذي سبقت الإشارة إليه؛ فإن له دراسات ممتازة جداً، حول سيرة النبي ﷺ، ومن تلك الدراسات الممتازة له ما كتبه بعنوان: "المجتمع المدني في عهد النبوة"، وهو جزآن: جزء يتعلق بخصائص هذا العهد وتنظيماته الأولى، والجزء الثاني يتعلق بالجهاد ضد المشركين، وقد تم طباعة هذين الجزأين من قبل الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وفيه دراسة ممتازة جداً وتأصيل جيد لدراسة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام. وهناك دراسات كثيرة ومتعددة اختلفت مناهجها وسبلها، وتعدادها يطول بنا الحديث عنها[27].

المطلب الثالث: الأعمال الخاصة لنقد الدراسات الاستشراقية:

إضافة لما قامت به بعض الدراسات الأكاديمية لنقد الدراسات الاستشراقية، فقد كان إلى جانبها تلك الأعمال الخاصة التي تضافرت مع جهود الدراسات الأكاديمية، ومن بين هذه المؤلفات التي اهتمت بانتقاد المستشرقين، كتابي: السّيرة النّبويّة في ضوء القرآن والسّنّة، للدّكتور محمّد بن محمّد أبو شهبة[28].

ومن نماذج تصدي أبو شهبة للدراسات الاستشراقية ما أورده في حديثه عن أخبار الكهان - ردًا على مزاعم المستشرقين -: إن المستشرقين قد اتخذوها - أخبار الكهان - ذريعة لربط الدعوة المحمدية بالكهان، وللربط بين القران المنزل رحمة للعالمين وسجعهم، ولأن بعض الكاتبين توهم تبعًا لهم أن النبي ﷺ كان يديم السماع للكهان قبل البعثة، فوجب التصدي[29].

وقد تطاول بعض المستشرقين في التّشكيك في حادثة شقّ الصّدر، وقد تأثّر بهذا الرأي بعض الكاتبين في السّيرة من المسلمين!! وقد قام الشّيخ محمّد بن محمّد أبو شهبة بالرّد عليهم[30]؛ فيقول في رده عليهم مبينًا ما انطوت عليه نفوسهم الخبيثة: " إن كثيرين من المبشرين، والمستشرقين، الذين يتأكّلون بالباطل قد تحاملوا على النبي ﷺاستجابة لنداء الصليبية التي ورثوها من آبائهم، ورضعوها في لبان أمهاتهم، ورموه بأشنع الصفات التي يتنزه القلم

(25) انظر: السابق، نفسه.

(26) انظر: المحمود، مقدمة كتاب "حياة محمد" ﷺ، لمحمد حسين هيكل.

(27) انظر: السابق، نفسه.

(28) انظر: بحرق، حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، ج1، ص19.

(29) انظر: أبو زهرة، خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، صـ 258.

(30) انظر: بحرق، حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، ج1، ص111.

عن ذكرها، وأسفّوا في ذلك غاية الإسفاف، ولكن المنصفين منهم- وقليل ما هم- ردّوا عليهم، وأنصفوا النبي ﷺبعض الإنصاف، وإن لم تخل كتبهم من الغمز واللمز"[31].

ثم يقول: " ومن عجيب أمر المبشرين والمستشرقين العلاقة بينهم في هذا المجال في سبيل إرضاء أهوائهم، ونزواتهم الجامحة، وأحقادهم الموروثة يصحّحون الروايات المكذوبة، والإسرائيليات المدسوسة، ما دامت تسعفهم وتساعدهم على باطلهم، على حين نجدهم يحكمون على روايات صحيحة، بل في أعلى درجات الصحة بالوضع والاختلاق؛ لأنها لا تؤيدهم فيما يجترحون من طعون، وتجن أثيم على مقام النبي وال بيته. ولست أدّعي أني في ردّي أباطيل المستشرقين والمبشرين ابن بجدتها، وأبو عذرتها "[32].

ومن بين الدراسات الخاصة التي تصدت لنقد أقوال المستشرقين حول السيرة النبوية ما كتبه الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – في كتابه "فقه السيرة" ومما يميز هذا الكتاب في مسألة نقد الدراسات الاستشراقية تعرضه لمسائل مهمة مما تناولها المستشرقون، ومن ذلك ما أثارته الدراسات الاستشراقية حول مسألة الجهاد والقتال في سبيل الله، فيقول الشيخ عن هذه المسألة التي لطالما أثارها المستشرقون، فيقول: " والقتال الذي شرعه الإسلام وخاض معاركه الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته هو أشرف أنواع الجهاد، بالاستدلال العلمي والاستقراء التاريخي؛ أنّ الحروب التي اشتبك فيها الإسلام- على عهد الرسول ﷺ وخلفائه- كانت فريضة لحماية الحق، وردّ المظالم، وقمع العدوان، وكسر الجبابرة"[33].

ومواصلة من الشيخ الغزالي في رد افتراءات الدراسات الاستشراقية حول مسألة الجهاد، يقول الشيخ ردًا على مزاعمهم حول سرايا الرسول ﷺ: "والمستشرقون الأوروبيون ينظرون إلى هذه السرايا كأنها ضرب من قطع الطريق، وهذه النظرة صورة للحقد الذي يعمي عن الحقائق، ويتيح للهوى أن يتكلّم ويحكم كيف يشاء"[34].

ويعد البوطي واحدًا من بين من نافح عن السيرة ضد أغلاط المستشرقين؛ فيقول في مقدمة كتابه عن السيرة مبينًا واحدًا من أهداف كتابه: "أن يميط الغشاء عن المغالطات التي كانت ولا تزال تدسها أقلام كثير من الكاتبين والمستشرقين والمستغربين وهي أغلاط ومغالطات قامت لتغذيتها ورعايتها وترويجها مدرسة فكرية معينة نشأت في أواخر القرن التاسع عشر وراحت تمد من آثارها وظلالها، إلى أيامنا هذه"[35].

وإذا كانت هذه المؤلفات تتعلق بما كُتِبَ باللغة العربية، فإن غيرها من اللغات لم تعدم شرف الكتابة عن سيرة النبي ﷺ بل والدفاع عنها، ومن تلك اللغات اللغة الأردية، ومن ذلك كتاب: «سيرة النّبي ﷺ » للعلامة الباحث المؤرخ الشيخ شبلي النّعماني[36] الّذي بدأ بتأليفه وأكمل جزأين منها إذ عاجلته منيته[37].

---

(31) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج1، ص15.

(32) يقال فلان ابن بجدتها، للعالم بالشيء، وأبو عذرتها إذا أتى بما لم يسبق إليه. المرجع السابق، صـ 16.

(33) انظر: الغزالي، فقه السيرة، صـ 218.

(34) انظر: المرجع السابق، صـ 222.

(35) انظر: البوطي، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، صـ 9.

(36) هو الأستاذ العلامة المؤلف، الباحث المؤرخ العلامة الشيخ شبلي النعماني أحد رجال النهضة الإسلامية وكبار المصلحين في الهند، شارك في تأسيس دار العلوم- ندوة العلماء، وأنشأ دار المصنفين في أعظم كره، كان وثيق الصلة بالعالم الإسلامي ونهضاته السياسية والاجتماعية، توفي سنة 1914م، ومن مؤلفاته المشهورة بالعربية «انتقاد تاريخ التمدن لزيدان» وبالأردية «السيرة النبوية» (الجزء الأول والثاني) و«سيرة الفاروق» و«النعمان»، انظر للاطلاع على ترجمته بكاملها كتاب: «شبلي النعماني علّامة الهند الأديب والمؤرخ الناقد الأريب» للأستاذ محمد أكرم الندوي، طبع دار القلم دمشق، وكتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين». انظر: الندوي، الرسالة المحمدية، صـ 5.

ومن صور الانتقاد للدراسات الاستشراقية العزوف عند النقل والأخذ عنها والإشارة إليها؛ فقد كان من بين علماء المسلمين من تَحفَّظ عند نقله عن المستشرقين، وإن لم يكن في قوله خطأ، دلالة على التحفظ الشديد في الأخذ عنهم؛ يقول أحدهم مستشهدًا بأحد المستشرقين عند حديثه عن أخلاق النبي ﷺ: "ويقول واشنجتون آرفنج عنه: "كانت طباع الرسول هادئة متلائمة، وكان يمرح أحيانًا، ولكنه كان في معظم الأحوال جادًا، وإن كانت له ابتسامة خلابة، كما كانت جميع تصرفات الرسول تدل على رحمة عظيمة، وكان سريع البديهة، قوي الذاكرة، واسع الأفق، عظيم الذكاء. كان الرسول عادلًا، فكان يعامل الأصدقاء والغرباء والأغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء على قدم المساواة، وكانت عامة الناس تحب الرسول، إذ كان يحسن استقبالهم ويستمع إلى شكواهم، كان حسن الطباع حليما رحيما صبورا". ثم يُعقب على هذا النقل فيقول: "الحق هو إنني لا أحب أن أستشهد بأقوال المستشرقين وغيرهم لإثبات عظمة النبي ﷺ، ولكنني اضطررت إلى إيراد هذين المثالين، لأن هذين الكاتبين غير مسلمين، والفضل ما شهدت به الأعداء"[38].

وهذا التعقيب منه يدل دلالة واضحة على التحفظ الشديد في النقل عن المستشرقين، وقد أتى هذا التعقيب وهو ينقل مدح أحدهم، فكيف لو كان ذما. وهذا يؤكد على أن ثلة من علماء المسلمين قد أخذوا على عاتقهم الدفاع عن سيرة النبي ﷺ، الأمر الذي يؤكد أن ما أنفقه دعاة السوء ومحترفو الغزو الفكري من مستشرقين ومستغربين وأذناب وجهال، من وقت طويل وجهد عظيم وكتابات مستفيضة متلاحقة، لا يمكنه أن يتسبب في تحويل شيء من الحق إلى الباطل أو من الباطل إلى الحق، وعلى أن الحقيقة الفكرية لا يمكن أن تغتال، ولئن أمكن مخادعتها أو التلبيس عليها، فلن يكون ذلك إلا إلى أمد.. ثم ينحسر الخداع ويزول التلبيس وتشرق الحقيقة مرة أخرى من جديد، ويستفيد المتأملون والباحثون من ذلك عبرة تمدّ أفكارهم بمزيد من الحذر والوعي[39].

ولعل خير ما نختم به حديثنا عن أهم ما كتب في نقد الدراسات الاستشراقية تلك الدراسة الرائعة، التي كتبها عالم كبير من علماء المسلمين المعاصرين، وهو الدكتور عماد الدين خليل، وقد تجلى نقده تلك الدراسات الاستشراقية، وكتابات المستشرقين من خلال سفره الرائع "المستشرقون والسيرة النبوية"والذي شمل عنوانه اسم المستشرقين، بما يوحي بقيامه بالرد المباشر على تطاول المستشرقين على سيرة النبي ﷺ إضافة لكتابه الآخر "دراسة في السيرة"، وفي الكتابين عرضٌ منهجي لرد الكثير من افتراءات الدراسات الاستشراقية ضد السيرة النبوية المشرفة.

هذه جهود علماء المسلمين تجاه نقد الدراسات الاستشراقية، وذلك من خلال تلك الدراسات الأكاديمية والمؤلفات التي تناولت تلك الدراسات الاستشراقية بالنقد والتحليل؛ حرصًا منهم على السيرة النبوية أن تطالها أراجيف المبطلين، وما زال الميدان بحاجة لجهود الفرسان.

المبحث الثاني: المنهج المؤيد للدراسات الاستشراقية.

لقد كتب الكثيرون من المستشرقين في سيرة النبي ﷺ من كل جنس ولون. ومن هؤلاء المنصفون- وقليل ما هم- وغير المنصفين- وهم الكثيرون-، ولا عجب فأغلبهم مبشّرون بدياناتهم، والكثرة الكاثرة منهم صليبيون لا يزالون يحملون الحقد على الإسلام، ونبي الإسلام، فمن ثمّ لا يجدون ثغرة ينفثون منها أحقادهم وسمومهم إلا نفذوا منها[40].

---

(37) والكتاب مطبوع، كتاب «سيرة النبي صلى الله عليه وسلم» للعلامة شبلي النعماني وتكملته للعلامة السيد سليمان الندوي، تقي الدين بن بدر الدين الندوي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

(38) انظر: خطاب، الرسول القائد، صـ 447.

(39) البوطي، فقه السيرة، صـ 11.

(40) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، صـ 38.

وبرغم ما هو معروف عن انحرافات كتابات المستشرقين – غالبا – عن رسول الإسلام، إلا أنه قد ساعد على تقبل أرائهم أن المغلوب ينظر إلى الغالب على أنه فوقه في كل شيء، فمن ثمّ نظر بعض المتعلمين، ولا سيما الذين لم يحظوا من الثقافة الإسلامية وعلوم الإسلام الأصيلة بحظ يؤهلهم للتمييز بين الحق والباطل، والخطأ والصواب- نظروا إلى المستشرقين على أنهم قمم في التفكير، وفي البحث، فلا يراجعون ما يقولون! ولا ينقض ما إليه ينتهون، بل بلغ ببعض الذين تثقفوا ثقافة إسلامية أن انزلقوا فيما انزلق إليه غيرهم، ومنهم من قام بترجمة بعض هذه الكتاب من غير أن يعلّق على ما فيها من خطأ بين، وباطل صراح، وليته اكتفى بهذا، ولكنه شارك في الإثم، فكال لها المديح والثناء! ![41].

من ذلك مثلا ما قيل عن بحوث المستشرق مونتجمري وات، فيرى بعض المتأثرين والمؤيدين للمنهج الاستشراقي أن جهود هذا المستشرق وإسهاماته التي لم يسبق إليها في دراسته لمناطق مجهولة (من تاريخ الإسلامي والسيرة النبوية) قد أصبحت لا يستغنى عنها، فلا يستطيع باحث يريد أن يفهم التاريخ الإسلامي والدور الذي تلعبه الأفكار الدينية في خلق البناء الاجتماعي أو تعديله أن يستغني عن مؤلفاته[42].

والحق أن المؤيدين لكتابات المستشرقين حول السيرة النبوية لم يكونوا صفًا واحدًا، وإنما افترقوا – في نظري – فريقان، أما الأول فكان تأييده من باب الإعجاب بالفكر الاستشراقي الغربي، ومن ثم فإن الكثير منهم قد عاد إلى رشده وصوابه بعد أن تبين له الهدى من الضلال، بينما الفريق الآخر وهم دعاة التغريب والحداثة ممن انبهر بالفكر الاستشراقي، ومن ثم تبني دعواه ليقوم بنشرها والترويج لها في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، ومن ثم تجدهم يرددون من الافتراءات والأباطيل ما يرفضه ذوي العقل والفطرة السليمة.

أولًا: المؤيدون المقلِّدون (التغريبيون).

ونحن هنا أمام فريق من المفكرين الليبراليين، ممن دعا لتقليد الحضارة الغربية تقليد "الندية"، ومن ثم فقد كانت الدراسات الاستشراقية بابهم نحو هذا التغريب، ولقد أصدر أحدهم (طه حسين) كتابه الأخطر وهو "مستقبل الثقافة في مصر" عام 1937م، وهو أوضح تعبير عن مشروع طه حسين الفكري القائم على التغريب، والعلمانية الصرفة[43]، ولكنها تغريبية التقليد على أساس من الندية، ويقول شارحًا الهدف من وراء التغريب، واحتذاء حذو الغربيين: "إننا نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرّها، وما يحب منها وما يكره وما يُحمد وما يُعاب"[44].

وعليه فإن المطلوب هو التبعية على أساس الندّية!!، لكنه لا يوضح لنا كيف تكون التبعية طريقاً للندية؟ أو كيف تؤسس الندية على ركام التبعية؟ مع أنه يقول صراحة: "نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم، حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنى وحقيقة وشكلاً"[45].

---

(41) المرجع السابق، نفسه.

(42) انظر: محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة.

(43) قدم في كتابه "من بعيد" رؤية علمانية للعلاقة بين ثالوث الدين والعلم والسياسة، وأكد فيه على علمانية الدولة المصرية. حسين، من بعيد، ص206-254. أما كتابه "مستقبل الثقافة" فهو يمثل خلاصة فكر طه حسين خلال فترة الدراسة، وهو وإن كان برنامجاً لمستقبل الثقافة والتعليم في مصر بعد معاهدة 1936، فإنه يعبر عن الرؤية الفكرية العامة لطه حسين في ميادين الحياة المختلفة، ويمكن اعتباره آخر مرافعة فكرية لطه حسين خلال فترة ما بين الحربين العالميتين. انظر: البطوش، كيف تسللت الليبرالية إلى العالم الإسلامي؟، صـ 31.

(44) انظر: حسين، مستقبل الثقافة في مصر، صـ 39.

(45) انظر: البطوش، كيف تسللت الليبرالية إلى العالم الإسلامي، صـ 62.

وعلى هذا كان توجه هؤلاء المقلدون للتأسي بالدراسات الاستشراقية مصرحين بذلك من خلال مؤلفاتهم عن السيرة النبوية، ومن الدراسات التي تأثرت بالدراسات الاستشراقية ما **كتبه طه حسين** في كتابه **"على هامش السيرة"**، فهذا الكتاب مملوء بالخرافات، ولا ينبغي أن يعتمد عليه أبداً؛ لأنها تأثرت بتلك الدراسات الاستشراقية وبالغزو الاستعماري. وقد أعلن الدكتور طه حسين - في غير ما حرج - أنه استوحى كتابه "هامش السيرة" من كتاب المستشرق جيل لومتير وعنوانه (على هامش الكتب القديمة) وأنه يحشد فيه كل ما استطاع من أساطير اليونان والمسيحية واليهودية والإسرائيليات وهكذا يتبين تبعية هذه الدراسات أصلًا للفكر الاستشراقي[46].

ومنها ما كتبه **محمد حسين هيكل** في كتابه **"حياة محمد"** ﷺ، أو في كتابه الآخر **"في منزل الوحي"**، فأنه قلد فيهما مناهج المستشرقين والمبشرين، فمثلاً: أراد أن يجعل من النبي ﷺ وكأنه واحداً من البشر العاديين، ومن ثم سمى كتابه "حياة محمد"، يعني: يريد ألا يجعل هناك معجزة إلا القرآن، فيبعد عن سيرة النبي ﷺ ما يسميه هؤلاء – المستشرقون - مخالفاً للعقل من المعجزات ومن المغيبات، ويريد أن يعرض سيرة النبي ﷺ عرضاً كما يقول: ليتناسق مع مقتضيات الحياة ومع بذل الأسباب البشرية، فجاء عرضه في سيرته بعيداً عن تلك القضايا المهمة في حياة النبي ﷺ والتي هي من معجزاته ودلائل نبوته عليه الصلاة والسلام[47].

ومنها ما كتبه **العقاد** في كتابه **"عبقرية محمد"**، وعنوانه يدل على مقصده منه! فمحمد رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ لا يُقاس بغيره من العظماء، وإنما يجب أن تختص دراسته بكونه نبياً ورسولاً من عند الله تبارك وتعالى[48].

وقد ظهرت هذه الكتابات متفرقة في الصحف: حياة محمد في ملاحق السياسة 1932م على أنها ترجمة وتلخيص لكتاب إميل درمنجم وكانت تنشر تحت هذا العنوان (حياة محمد. تأليف إميل درمنجم. تلخيص وتعليق الدكتور محمد حسين هيكل) ثم ظهرت فصول (على هامش السيرة) في الأعداد الأولى من مجلة الرسالة التي صدرت 1933م، بقلم الدكتور طه حسين. أما فصول (عبقرية محمد) فقد بدأت عام 1942م بقلم الأستاذ العقاد في أحد الأعداد السنوية الخاصة بالهجرة[49].

ومن ثم يتبين لنا أن تلك الدراسات قد احتوت على مجموعة من الأخطاء الأساسية التي كان مصدرها تبني أسلوب المستشرقين، وتبني وجهات نظرهم، وهم أساسًا لا يعترفون بالإسلام دينًا خاتمًا ولا بالنبي محمد ﷺ، ولا يؤمنون بالوحي، ولا يفرقون - كما يفرق المسلمون - بين الألوهية والنبوة[50].

وإذا كانت كتب: "حياة محمد"، و"على هامش السيرة"، و"العبقريات"، قد هزت وجدان الشعب المسلم وقتها وأحدثت نوعًا من الإعجاب والتقدير فإن هذا كان هدفًا مقصودًا من الجهات التي شجعت ذلك وهو[51]:

أولًا: مواجهة حركة اليقظة الإسلامية التي كانت تهدف إلى تقديم الإسلام كمنهج حياة ونظام مجتمع بكتابات إسلامية من أقلام لها مكانتها السياسية في الجماهير لتحويل التيار نحو المفاهيم العلمانية والليبرالية وهو ما

---

(46) انظر، الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج1، ص20.

(47) يراجع في ذلك: الاتجاه العلماني المعاصر في دراسة السيرة النبوية، دراسة نقدية، غازي محمود الشمري، دار النوادر، 1433هـ/2012م.

(48) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج1، ص18.

(49) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج1، ص19.

(50) المرجع السابق، ج1، ص18.

(51) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج1، ص19.

يسمى (تقديم البديل) المتشابه ظاهريًا والمختلف جوهرًا، وهو بهذا استجابة ظاهرية للموجة الإسلامية ومحاولة لاحتوائها.

ثانيا: فرض المفهوم الغربي على السيرة والتاريخ الإسلامي وهو المفهوم المفرغ من الوحي والغيبيات والمعجزات[52].

ولكن هذه الظاهرة بالإعجاب بكتب الليبراليين عن السيرة لم تدم طويلًا فقد تكشفت خفاياها وظهر أن منهج الكتابة في هذه المؤلفات لم يكن إسلاميًا أصيلًا وإنما تشوبه التبعية لمفاهيم الاستشراق والتغريب حتى يمكن أن يقال في غير ما حرج: إن المؤلفات الثلاثة الكبرى (حياة محمد- على هامش السيرة- عبقرية محمد) هي نتاج غربي يعتمد على مذاهب الكتابة الغربية ويخضع لكثير من أخطائها ويسقط بحسن نية وراء مفاهيمها الكنسية والمادية، ويختلف اختلافًا واضحًا عن مفهوم الإسلام الجامع[53].

وعلى أية حال فبيت القصيد يتلخص في أن هؤلاء الدعاة للتقليد والمتأثرين بالدراسات الاستشراقية عاد منهم الكثير لصوابهم، بعد أن اتضح لهم خطأ الطريق التي يسلكونها، ومن ثم ففي عقد الثلاثينيات ظهرت في مصر موجة من المراجعات الفكرية في صفوف التيار الليبرالي، طالت عدداً من أبرز رموزه، كان من مظاهرها توجيه نقد لاذع لحضارة الغرب ولحركة التغريب[54].

ثانيًا: المؤيدون المروجون (الحداثيون).

وهؤلاء لم يكونوا ليقلدوا إعجابًا وإنما للترويج، وهؤلاء هم الحداثيون، أولئك النفر الذين شذوا عن الطبائع السوية والفطر السليمة فقالوا من الأقاويل في حق الإسلام ونبيه بل وفي حق رب العزة سبحانه وتعالى ما لا يجرؤ أصحاب الدراسات الاستشراقية على أن يتلفظوا به؛ لقبحه، فهم يقولون – المستشرقون -: إنه ﷺ منذ حداثة سنه أُعد للدور الذي تبوأه لاحقاً، ويلمح إلى هذا وات في كتابه "محمد: نبي ورجل دولة" بل ويجعله أساساً يستند إليه في تفسيره لكثير من وقائع السيرة، ويعزو له النجاح الباهر الذي حققته الرسالة المحمدية[55].

ومن أبرز هؤلاء الحداثيون نذكر محمد أركون، ومحمد عابد الجابري، وهشام جعيط، وهم إذ يروجون ما يهرف به أصحاب الدراسات الاستشراقية تجدهم قد فاقوهم في الافتئات على دين الله تعالى، وعلى شرعه الحنيف[56].

ومما يروج أركون – مثلا – الحديث عن تأثر النبي ﷺ بالكتب السابقة عليه من التوراة والإنجيل، وهي مسألة قد حُسِمت؛ إذ إن التاريخ الصحيح وحتى الضعيف معًا قد حسما مسألة العلاقة بين القرآن والتوراة والأناجيل حسمًا نهائيًا على مستوى التاريخ، وذلك أن تاريخ السيرة النبوية – بصحيحها وضعيفها - شاهد على أنه لم

(52) المرجع السابق، نفسه.

(53) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج1، ص20.

(54) انظر: البطوش، كيف تسللت الليبرالية إلى العالم الإسلامي؟، صـ 62

(55) انظر: العمري، السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية، صـ 34.

(56) للاستزادة عن جرائم هؤلاء في حق الشرع الحنيف وفي حق سيرة النبي ﷺ انظر: هموم ثقافية، تجديد الإسلام في غابة فرنسية، وقفة مع فكر هشام جعيط، بقلم: أحمد إبراهيم خضر، مجلة البيان، 102/ 46، الأخطاء التاريخية و المنهجية في مؤلفات محمد أركون و محمد عابد الجابري، دراسة نقدية تحليلية، خالد كبير علال، دار المحتسب، 2008م، وله - أيضا - (56) انظر: أباطيل و خرافات حول القرآن الكريم و النبي محمد ﷺ والسلام، دحض أباطيل عابد الجابري و خرافات هشام جعيط حول القرآن و نبي الإسلام، خالد كبير علال، دار المحتسب، 2008م، صـ 264، والمخزاة الجعيطية في كتابة السيرة النبوية، إبراهيم عوض، http://www. maktoobblog. com/ibrahim_awad9،

تكن هناك أية علاقة أخذ ولا تأثر ولا تأثير بين القرآن وتلك الكتب، وقد سعت قريش جاهدة باتهام النبي - ﷺ- بأنه يأخذ من أهل الكتاب، ففشلت في ذلك فشلًا ذريعًا، وقد سجل الله تعالى دعواها ورد عليها ردًا مفحمًا، وتحداها بالقرآن، وكذلك اليهود في المدينة، فهم مع شدة عداوتهم للإسلام ونبيه والمسلمين، فإنهم لم يجرؤوا على اتهام رسول الله بأنه يأخذ عنهم، وهو أقوى سلاح في أيديهم لو كان الأمر كما زعم أركون، و بما أن قريشًا واليهود عجزوا في إثبات تلك العلاقة الموهومة المزعومة، مع حرصهم عليها، وشدة عداوتهم للإسلام، دلّ ذلك على أن زعم أركون الذي أخذه عن شيوخه المستشرقين، هو زعم باطل و خرافة من خرافاته[57].

وأما الجابري فموقفه من مصدرية القرآن يختلف تمامًا عن موقف صديقه أركون، فلم أعثر له على ما يُشير إلى أنه طعن في مصدرية القرآن الربانية أو شكك فيها، وقد نوّه بأهميته كمصدر موثوق في التأريخ للسيرة النبوية، وقد أشار إلى ذلك في القسم الذي خصصه للسيرة النبوية من كتابه "العقل السياسي العربي"[58].

وأما هشام جعيط فقد أورد طائفة من الخرافات في كتابة "تاريخية الدعوة المحمدية"، تتعلق بالحديث والسيرة النبوية، من دون أن يُؤيدها بأي تحقيق علمي صحيح، ولا رواية تاريخية صحيحة ولا ضعيفة[59].

وانظر إلى مدى التمادي في ترويج الباطل حين يدّعي جعيط أن الاهتمام بالحديث لم يكن موجودًا في القرن الأول، ثم يحيل في هامش كتابه إلى كتاب للمستشرق شاخت[60]. فكيف تسوغ له نفسه الاستدلال بقول مستشرق في مسألة دينية صِرفة، قد تناولها علماء الإسلام بالبحث والدرس، وأماطوا عن خباياها اللثام، وأزالوا عنها غبش الأباطيل، إلا أن يكون الرجل داعية لما يثير التشكيك في العقائد؛ إذ لو كان يسعى للحق لاهتدى إليه عند رجاله[61].

ومن خرافات جعيط زعمه أن شباب محمد ﷺ يمثل مشكلة كبيرة يستعصي حلها، فلو اتخذنا منهج الصرامة التامة لوجب القول: إنا لا نعرف عنه شيئا قبل الدعوة سوى الإشارات القرآنية، وأن كل ما قيل في المصادر من باب الخيال الديني والأسطورة[62]. وما من شك في أن قوله هذا زعم باطل ومردود عليه، وفيه تغليط للقراء وتدليس عليهم؛ لأنه أولًا لم يُقدم دليلًا تاريخيًا صحيحًا - ولا ضعيفًا - يُؤيد به زعمه، وإنما اعتمد - كعادته- على ظنونه وأهوائه وتعصبه. وعليه فإنه لن يستقيم زعمه إلا بدليل صحيح، وزعمه ما هو إلا دعوى، والدعوى لا يعجز عنها أحد[63].

وأمام كل هذه الادعاءات الجعيطية فقد بات واضحًا أن جعيطًا عندما لم يجد في حياة النبي - قبل نبوته - ما يثبت مزاعمه الخرافية كحكاية التأثيرات الكتابية، واحتراف النبي - عليه الصلاة والسلام - للتجارة وطلبه للعلم في الشام، رفض – جعيط - بعض تلك الأخبار الصحيحة من جهة، وقزّم ما قبله منها من جهة أخرى، وهذه التي رفضها ليس لأنها غير صحيحة، وإنما لأنها تنقض مزاعمه الخرافية، فلم يبق أمامه إلا رفضها وتقزيم ما صحّ منها، والتعلق بالظنون والأوهام تعصباً وجحوداً للحقيقة[64].

---

(57) انظر: علال، الأخطاء المنهجية والتاريخية في مؤلفات أركون والجابري، صـ 396.

(58) المرجع السابق، نفسه.

(59) انظر: علال، أباطيل وخرافات حول القرآن الكريم والنبي محمد ﷺ والسلام، صـ264.

(60) انظر: جعيط، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، ص37، 326.

(61) انظر: علال، أباطيل وخرافات حول القرآن الكريم والنبي، صـ 264.

(62) انظر: جعيط، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، صـ154.

(63) انظر: علال، أباطيل وخرافات حول القرآن الكريم والنبي، صـ 265.

(64) المرجع السابق، صـ 267.

من هذه الإسهامات التي أسهم بها دعاة الحداثة يتضح جليًا مدى ما قاموا به من سعي في الترويج للدراسات الاستشراقية، وإن خالفت دعاوى المستشرقين ما ثبت لدى علماء المسلمين وأقاموا عليه الأدلة الدامغة، إلا أن نفوس هؤلاء التي أنفت عن قبول الحق سعيًا وراء سراب أنفسهم الأمارة بالسوء كان نتاجًا طبيعيًا لترويجهم كل ما خالف الثوابت.

المبحث الثالث: المنهج المحايد للدراسات الاستشراقية.

إن من النماذج المحايدة في التعامل مع الدراسات الاستشراقية ما كتبه الشيخ رفاعة الطهطاوي، فقد كتب الطهطاوي السيرة النبوية وقدمها تحت عنوان" نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز"، وهي تمثل أوّل نموذج للكتابة الحديثة لمتن السيرة النبوية[65].

وبقدر ما يبدو في كتاب الطهطاوي "نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز" من تماس مع الرواية التاريخية فإن ذلك التماس هو الذي يمكن أن يفسر "خفوت" تأثير الكتابات الغربية - والفرنسية تحديدًا؛ إذ كان مبتعثًا إليها - عن النبي ﷺ على كتابة الطهطاوي؛ فعند إقامة الطهطاوي في باريس (1826- 1831م) واتصاله بالثقافة والأدب الفرنسيين كان هناك خمسة عشر عملًا فرنسيا تناول النبي ﷺ سواء بكتابة سيرته، أو بتقديم وصف تاريخي له، أو بتقديم فهم جديد له يكشف عن رؤية جديدة له تخالف رؤية القرون الوسطى، واستلهام شخصيته في بعض الأعمال الإبداعية الكبرى. ولا يبدو تأثير هذه الكتابات على كتابة الطهطاوي للسيرة على الرغم مما يبدو في" أنوار توفيق الجليل" من اتصال الطهطاوي بكتابات المستشرقين حول بعض جوانب الثقافة" الدينية" العربية، فلعل الطهطاوي لم يعن بما كتبه المستشرقون الفرنسيون السابقون عليه والمعاصرون له عن سيرة النبي ﷺ. لقد كانت كتابة الطهطاوي للسيرة النبوية بصياغة تشكيلها السردي نابعة من الموقف الذي كان الطهطاوي يسعى إلى تأصيله لدى من توجه إليهم بها[66].

والمؤلف يستخدم المنهج العلمي في دراسته؛ فإذا ما تعرّض لحادثة عجيبة أو حدث تاريخي مختلف عليه، أو مسألة فقهية عرضت له في سرده، أخذ القارئ في سياحة طريفة، ووافاه من علمه الغزير بما يحيط بالمسألة ويجليها؛ إذ يقلّبها على وجوهها، ويشرك القارئ معه في التوصل إلى اقتناع عقلي يميط اللبس ويجلى الحق[67].

وإن كنا نعرض للمنهج المحايد كأمر واقع فلا يفوتنا التنويه أن هناك رفض للحيادية في مثل هذه الأمور، يقول قائلهم: " ومما يؤسف له ويندى له الجبينُ أنّ كثيرا من أبناء العالم الإسلامي الذين تتلمذوا على هؤلاء المستشرقين أو درسوا في جامعاتهم قد تأثّروا بادّعاءاتهم الكاذبة، واغترّوا بتمسّكهم الظاهر بالمنهج العلمي المحايد، كما يقولون"[68].

إلا أن الطبائع السليمة تقتضي القول بالحياد في تلك المسألة؛ فالقارئ المسلم العربي لدراسات المستشرقين حول السيرة النبوية ينبغي أن يكون محايدا فيبرز الإيجابيات – إن وجدت – ويبين السلبيات محاولًا الرد عليها وتفنيدها، إذ الأمر لا يخلوا من آراء لبعض المستشرقين تتفق وما نقول به، وحينها لزم الأمر القول بصحتها، والأمر بالعكس كذلك.

---

(65) انظر: الطهطاوي، نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، صـ 20.

(66) المرجع السابق، صـ 55.

(67) انظر: نهاية الإيجاز، صـ 5.

(68) انظر: ألارو، الخطاب الاستشراقي والقرآن الكريم التشريعات المالية في القرآن نموذجاً، صـ 2.

الخاتمة.

1- خلاصة بأهم النتائج.

يمكن إجمال أهم النتائج التي توصلنا إليها على النحو الآتي:

- المستشرق هو كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء البحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواء كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه اللغة، وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة، فالاستشراق إذن وصف لهذا العلم.
- لا يعرف بالضبط من هو أول غربي عنى بالدراسات الاستشراقية ولا في أي وقت كان ذلك، ولكن المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس في إبان عظمتها ومجدها، وتثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب والعربية إلى لغاتهم، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات.
- يتمثل الهدف العام من الاستشراق في دراسة القرآن والسنة بغرض التأثير فيها لتقديمها بمنهج ووجه مخالف لما هي عليه وذلك بإثارة الشبهات حولها، لما تمثله من أهمية كبيرة في وجدان كل مسلم، وكذلك تشكيك المسلم في عقيدته، ودينه، فكانت دراساتهم للسيرة تتجه نحو تحقيق ما يهدفون لتحقيقه؛ فقداسة القرآن، وثبوته عن رب العزة تعالى، جعلهم لا يقوون على الولوج في التشكيك فيه مباشرة، وإنما جعلوا من السيرة والسنة بعامة بابا يلجون منه نحو القرآن والتشكيك فيه.
- أمام كل هذه الجهود التي نتجت عن الدراسات الاستشراقية خرجت مناهج لدراسة السيرة النبوية متأثرة بتلك الدراسات الاستشراقية، وكان منها الناقد لتلك الدراسات المعترض على مبادئها وتصوراتها، ومنها المتأثر بها، وعلى رأسهم دعاة التغريب، من أولئك المتأثرين بهم والمنبهرين بكل ما عنهم وإن كان غثا، ثم فريق آخر أخذ موقفا حياديا تجاه تلك الدراسات.

2- التوصيات والمقترحات.

واستنادا للنتائج توصي الباحثة وتقترح الآتي:

1- تضافر جهود العلماء والباحثين والمؤرخين المسلمين من أجل التصدي لتلك الهجمات الاستشراقية الشرسة على بنيان السيرة النبوية.

2- متابعة ما يصدر عن السيرة النبوية وتاريخها وحضارتها من مؤلفات استشراقية وتفنيدها ونقدها والرد على ما يكون فيها من مغالطات أو أخطاء.

قائمة المصادر والمراجع.

- أبو زهرة، محمد بن أحمد (1425هـ). خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، دار الفكر العربي: القاهرة- مصر، الطبعة الأولى.
- أبو شهبة، محمد بن محمد بن سويلم (1427هـ). السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، دار القلم: دمشق- سورية، الطبعة الثامنة.
- أحمد، مهدي بن رزق الله. مزاعم وأخطاء وتناقضات وشبهات بودلي في كتابه «الرسول، حياة محمد» دراسة نقدية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

- الأصبهاني، أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (1986). دلائل النبوة، تحقيق: الدكتور محمد رواس قلعه وعبد البر عباس، دار النفائس: بيروت- لبنان، الطبعة الثانية.
- بحرق، محمد بن عمر بن مبارك الحميري الحضرمي الشافعي (1419ه). حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، تحقيق: محمد غسان نصوح عزقول، دار المنهاج: جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى.
- البوطي، محمد سعيد رمضان (1426ه). فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر: دمشق- سورية، الطبعة الخامسة والعشرون.
- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي (1405ه). دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان، الطبعة الأولى.
- الثبيتي، أمل عبيد (1424ه). السيرة النبوية في كتابات المستشرقين البريطانيين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة ام القرى.
- جعيط، هشام (2007). تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، دار الطليعة: بيروت- لبنان، الطبعة الأولى.
- الجندي، أنور (1410ه). منهج الاستشراق في دراسة الإسلام، مجلة منار الإسلام، السنة (15)، العدد التاسع.
- الحجي، عبد الرحمن على (1420ه). السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها، دار ابن كثير: دمشق- سورية.
- الحسيني، السيد سليمان الندوي (1423ه). الرسالة المحمدية، دار ابن كثير: دمشق- سورية.
- الحضرمي، محمد بن عمر بن مبارك الحميري الشافعي (1419ه). حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، تحقيق: محمد غسان نصوح عزقول، دار المنهاج: جدة.
- الخركوشي، عبد الملك بن محمد بن إبراهيم (1424ه). شرف المصطفى، دار البشائر الإسلامية: مكة- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى.
- خضر، أحمد إبراهيم. هموم ثقافية، تجديد الإسلام في غابة فرنسية، وقفة مع فكر هشام جعيط، مجلة البيان.
- خطاب، محمود شيت (1422ه). الرسول القائد، دار الفكر: بيروت- لبنان، الطبعة السادسة.
- خليل، عماد الدين (1425ه). دراسة في السيرة، دار النفائس: بيروت- لبنان، الطبعة الثانية.
- خليل، عماد الدين (1426ه). المستشرقون والسيرة النبوية، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق، بيروت.
- الديب، عبد العظيم (1409ه). المنهج عند المستشرقين، حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- جامعة قطر، العدد السابع.
- الزيات، أحمد حسن (د.ت). تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر: القاهرة- مصر، الطبعة الأولى.
- السباعي، مصطفى (1979). الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، المكتب الإسلامي للنشر والتوزيع: دمشق- سورية، الطبعة الثانية.
- سعيد، إدوارد (1995). الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: د. محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع: القاهرة – مصر، الطبعة الأولى.
- الشامي، محمد بن يوسف الصالحي (1993). سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية: بيروت – لبنان.

- الشريف، أحمد إبراهيم. مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي: القاهرة- مصر.
- الشمري، غازي محمود (2012). الاتجاه العلماني المعاصر في دراسة السيرة النبوية، دراسة نقدية، غازي محمود الشمري، دار النوادر.
- الطهطاوي، رفاعة رافع (1419ه). نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، دار الذخائر – القاهرة.
- عكوي، عبد الكريم بن زيد. جهود علماء المسلمين في تمييز صحيح السيرة النبوية من ضعيفها، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف: الرياض- المملكة العربية السعودية.
- علال، خالد كبير (2008). أباطيل وخرافات حول القرآن الكريم والنبي محمد والسلام، دحض أباطيل عابد الجابري وخرافات هشام جعيط حول القرآن ونبي الإسلام، دار المحتسب: عمان - الأردن، الطبعة الأولى.
- علال، خالد كبير (2008). الأخطاء التاريخية والمنهجية في مؤلفات محمد أركون ومحمد عابد الجابري، دراسة نقدية تحليلية، دار المحتسب: عمان – الأردن.
- العمري، أكرم بن ضياء. مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات الإخباريين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
- العمري، بريك بن محمد بريك أبو مايلة؛ العمري، أكرم ضياء (1996). السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، دار ابن الجوزي: القاهرة- مصر.
- العمري، وليد بن بليهش. السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
- عواجي، غالب بن علي (2006). المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، المكتبة العصرية الذهبية: جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى.
- الغزالي، محمد (1427ه). فقه السيرة، دار القلم: دمشق- سورية، الطبعة الأولى.
- الفارابي، أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (1987). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين: بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة.
- قريبي، إبراهيم بن إبراهيم (1412ه). مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية.
- قميحة، جابر (1991). آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم، مجلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي: مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية، العدد 116.
- الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري (1409ه). أعلام النبوة، دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة الأولى.
- الندوي، أبو الحسن (1425ه). السيرة النبوية، دار ابن كثير: دمشق- سورية، الطبعة الثانية عشر.
- الندوي، تقي الدين بن بدر الدين. سيرة النبي صلى الله عليه وسلم» للعلامة شبلي النعماني وتكملته للعلامة السيد سليمان الندوي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
- الندوي، محمد أكرم. شبلي النعماني علّامة الهند الأديب والمؤرخ الناقد الأريب»، طبعة دار القلم دمشق.
- وات، ويليام مونتجمري (1415ه). محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة، ترجمه إلى العربية: الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ، راجع الكتاب وعلق عليه: الدكتور أحمد الشلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة.